عملية زائدة

د . عبدالقدوس أبو صالح

كان ذلك في مصيف جميل في إحدى الدول النائمة ، وفي أحد الرمضانات الذي دخل في الإجازة الصيفية ، خرجت من المسجد بعد صلاة الجمعة وأنا أشعر بحيوية جيدة ، ورأيت أن أمارس رياضة المشي على شاطئ البحر ، وعدت بعد ساعة إلى المنزل دون أن أحس بتعب المشي ولا عطش الصيام.

وعندما اقترب موعد الإفطار أحسست بألم في البطن، وظننته أمرا عارضا، ولكنه كان يزداد بشكل متسارع مما ألجأني إلى ما اعتدنا عليه من العلاجات المنزلية من شرب الشاي والبابونج وما إليهما.. دون أن يفيد ذلك في تخفيف الألم.

واتصلت بأحد المعارف وهو طالب في السنة النهائية من كلية الطب ، فطلب إليّ أن أتحامل على نفسي لأن الليل كان قد انتصف ، وكان الوعد بيني وبينه أن أذهب إلى مستشفى الجامعة في الصباح إذا بقي الأمر على حاله.

وبعد صلاة الفجر طُرق باب المنزل فإذا بالطالب مع صديق له يملك سيارة خاصة وابتدرني قائلا: تصورت شدة معاناتك فلم أتردد في المجيء إليك لنبادر بالذهاب إلى مستشفى الجامعة رغم المسافة الشاسعة.

استقبلني طبيبان شابان في قسم الطوارئ ، وبعد المعاينة السريعة أحالاني إلى قسم الأشعة، ثم قدرا أنه لا بد من إجراء عملية الزائدة رغم أن علاماتها من ارتفاع الحرارة والإقياء وتركز الألم في الجانب الأيمن من البطن لم يكن لها وجود.

قلت لصاحبي الذي يعرف لغة الطبيبين: «إذا كان لا بد من العملية فإني أفضل إجراءها في مستشفى خاص، وذلك أفضل من المستشفى الجامعي وأفضل من أن أسلم نفسي لطبيبين حديثي التخرج» . وكان جواب الطبيبين (النطاسيين): نحن لا نضمن ألا تنفجر الزائدة وهو في طريقه إلى مستشفى آخر، وعندئذ يكون احتمال موت المريض شبه مؤكد» .

أُدخلت إلى غرفة العمليات ، واستلقيت على منضدة مهترئة وأسرع أحد الطبيبين بإحضار خشبة متطاولة أسندا رأسي إليها حتى شعرت بالألم في عنقي ومدا ساعديّ عليها ، ثم عمدا إلى إبرة التخدير حتى غبت عن الوجود ، وكانت أغرب عملية في الوجود!!.

كان الطالب المرافق لي رجا الطبيبين طيبي الذكر أن يسمحا له بحضور العملية، فسمحا له بذلك حتى يتعلم منهما ما ينفعه ، وحتى يطمئن إلى سير العملية.

وقد حدثني الطالب المذكور أن الطبيبين شقا بطني واستأصلا الزائدة دون أن يجدا فيها أي أثر للالتهاب ، ثم عمدا إلى سطل معدني وملآه بالماء، وأذابا فيه نوعا من المسحوق، ثم فتحا بطني وصبا فيه ما في السطل من الماء ، ثم أمسك كل منهما بطرفي جسمي ، وأرجحاني يمنة ويسرة عدة مرات ، ثم أفرغا الماء من بطني ليعيدا عملية (الشطف) ثلاث مرات متتالية ، ثم تمت خياطة البطن لأرسل إلى غرفة الإنعاش.

أفقت من أثر المخدر لأرى نفسي بين زوجتي وأولادي ، وكان في الغرفة عدد كبير من المرضى الذين كانوا يئنون ويتوجّعون، وكان الذباب يحوم حول المرضى دون مبالاة ، وما هي إلا برهة يسيرة حتى رجع الألم الذي كنت أشكو منه قبل العملية (الناجحة). وصرت أستغيث لإخراجي من غرفة الإنعاش حتى استجيب لطلبي ، ووضعت في غرفة خاصة حيث توالى عليّ عدد من الأطباء وقد أخذتهم الحيرة من أمري.

واستطعت أخيرا بشفاعة من أحد كبار الأطباء أن أنجو من المستشفى الجامعي ، وانتقلت إلى مستشفى خاص وإذا بالطبيب يرى تلوثا في الجرح ما لبث أن أدى إلى التهاب في أوردة الساقين عانيت منه الأمرَّين.

كان هذا الطبيب مجيدا لصنعته، وكان تشخيصه أني ربما كنت مصابا بمرض (كراون) وهو مع أسفي الشديد مرض ينتشر بين اليهود خاصة .. وفي هذا المرض ينقبض جزء من الأمعاء حتى يغلق تماما. ولعله المرض الذي يسميه العامة في بلاد الشام بعقد (المُصْران).

وكان من تخوّف هذا الطبيب من أن تعاودني النوبة السابقة أن أعطاني حقنة وريدية مسكّنة، وأوصاني أن أحقن بها إذا داهمني الألم، على أن أتصل به فورا بالهاتف مع احتمال نقلي إلى المستشفى وإجراء عملية أخرى.

وقد حمدت الله أن الألم لم يعاودني، وقد شفي الجرح بفضل الله ثم عناية هذا الطبيب، ورغم ذلك عمدت إلى السفر إلى فرنسا حيث يقيم أحد إخوتي ، وهناك قصدت أحد كبار الأطباء الذي اطلع على التقارير الطبية السابقة، ثم أحالني إلى مختبر لتصوير الأمعاء، وكان رأيه بعد اطلاعه على تقرير المختبر أنه لم يكن هناك حاجة إلى عملية الزائدة، وأما حمرة جزء صغير من الأمعاء كما جاء في تقرير الطبيبين الشابين فقد اختفت، وكانت في رأي الطبيب الكبير نوعا من الحساسية العارضة.

فكان أعجب ما في تقرير التصوير هو قول خبير الأشعة : «إن أمعاء هذا المريض ليست في مكانها المعتاد، وهي مغمورة بمادة رغوية لا نستطيع معرفة مصدرها».

ولعل القارئ يعرف مصدرها، وأنها من أثر «شطف» الأمعاء ثلاث مرات بماء السطل الذي أذاب فيه الطبيبان مسحوقا سحريا عجيبا ■